

جدل الديني [الأشاعة والمعتزلة]

د. محمود كيشانه

- مصر -

إن موقفنا من المتكلمين عامة ليس موقفًا عدائيًا ولا متعصبًا؛ بل كان موقفًا نحاول أن يكون موقفًا علميًا منطقيًا، يبحث في لب المشاكل، لا في ظاهرها، حيث نحاول أن نقيم اعوجاجهم، وذلك من خلال محاولتنا بيان أوجه القصور والنقص في منهجهم وفكرهم، ونحن في ذلك نحاول أن نستند في فكرنا وآرائنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأنهما المعول عليه الأول والأساسي في الأمور الكلامية، فضلًا عن اعتمادنا على العقل النظري والأسس المنطقية .

وكم كان يتمنى كل واحد منا لو التقى أتباع الفرق الكلامية، وأخلصوا لله في عملهم ، وعرفوا أنهم جميعاً تحت لواء الإسلام يعبرون عنه ويدافعون عن قضاياه ، ونبذوا التقليد الأعى للمذهب الذي لا ينتج عنه إلا تعصب بغيض يرفضه الإسلام ؛ إذ لو فعلوا ذلك لوجدوا أن مساحة المتفق عليه من النظرية والتطبيق أضعاف المختلف عليه ، ولكان ذلك أنفع للإسلام والمسلمين ضد حملات المستشرقين والعلمانيين والملحدين التي تجتاح العالم الإسلامي كله وتزداد ضراوة يوماً بعد يوم .

ولعل ذلك ما أكد عليه كل منصف أكثر من مرة ، عندما دلل على أن الخلافات بين المتكلمين لفظية لا أساس لها، ولو تمعنوا لوجدوا أنهم في الغالب يقولون شيئاً واحداً ، ولكنهم رضوا بالاختلاف والفرقة على حساب المصلحة. إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن هؤلاء المتكلمين كانوا يريدون مجداً شخصياً لأنفسهم ، أو- إن شئت فقل - نصراً زائفاً على خصومهم ؛ إذ لو كانوا ييغون المصلحة العامة لعلموا أن تناقضهم واختلافهم ليس في صالح الإسلام ولا المسلمين ، وإنما في مصلحة أعداء الأمة الذين يحققون بها شراً من جميع الجهات ، وأن حملاتهم تتجدد يوماً بعد يوم ، وعصرًا بعد عصر. وكم كنت أتمنى لو عقدت طوائف المتكلمين اجتماعاً أو مجلساً فيما بينهم يتدارسون فيه آراءهم ؛ ليصلوا من خلاله إلى رأي موحد يفيد الأمة ، إلا أنهم سعدوا بالفرقة والاختلاف ، وإن كان اختلافاً لفظياً يمكن تجاوزه.

وإذا كان المتكلمون قد حاولوا البرهنة على العقائد فإنها كانت برهنة لا يقبلها الإنسان المتخصص فضلاً عن الرجل العادي ، بحيث لم تقض على مظاهر الخلاف والنزاع بين المسلمين ، وإن كان يجب التأكيد على فكرة قديمة وجلييلة في الوقت نفسه ، مؤداها : أن العقل والدين لا يتناقضان ؛ لأن القرآن والسنة حثا على النظر والتأمل في الكون ، وهما بلا شك من وظائف العقل .

إلا أننا نعتقد أن للعقل مجالاً لا يستطيع أن يتجاوزه ؛ اذ لو تجاوزه لظهر عجزه؛ لأن "العقل في مجال ما وراء الطبيعة مثله مثل لوح من خشب ، يريد الإنسان أن يقطع به البحر في يوم عاصف، أما مثل الدين بالنسبة لما وراء الطبيعة فإنه المركب، إنه السفينة الآمنة لقطع البحر..."⁽¹⁾ ولعل ذلك هو سبب البلاء الذي أصيبت به الأمة الإسلامية في اختلافها وتفرقها ، حتى صارت بينهم حرب شعواء ؛ لأنهم حاولوا ولوج مجال صعب وشاق في آن واحد ، إن لم يكن مستحيلًا اعتمادًا على العقل ،الذي هو مخلوق من مخلوقات الله، فكيف يدرك المخلوق الخالق .

يقول الدكتور محمد السيد الجليند مؤكداً على هذه الفكرة: "أحكام العقل على الأشياء غير المحسوسة يحتاج فيها إلى الاستعانة بوسائل أخرى تمده بالمعرفة اليقينية عن هذه الأشياء غير المحسوسة ، وحواس الشخص لا تصلح إلا للتعامل مع حاضره المحسوس فقط، ولا تصلح للتعامل مع ماضيه ولا مع مستقبله. فما بالك بالتعامل مع ما وراء المحسوسات عموماً، أو مع الأمور الغيبية كقضايا الاعتقاد وأمور الميتافيزيقا."⁽²⁾

وقد درسنا في هذا الكتاب الفرق الثلاثة – المعتزلة ، الأشاعرة ، الماتريدية - دراسة مركزة ، تقوم على المقارنة بينهم في الفكرة الواحدة ، أو الموضوع الواحد ، عارضاً لكل جوانبه ناقداً له ، معتمداً في ذلك على مقتضيات العقل وما يوافقه من آيات ، متأثراً في نقدهم بآبَن رَشَد، الذي طالما كان ينتقد المتكلمين في تفرعاتهم الجدلية وآرائهم العقيمة في قطاع كبير منها.

وتجدر الإشارة إلى أننا لم نتناول كل الأفكار المتعلقة بهذه الفرق ، بل نتناول ما يتعلق بجانب الإلهيات بشيء من التركيز ، وإن كنا لا نركز كثيراً في الوقت نفسه على ما يتعلق بجانب النبوات والسمعيات ، وسوف نتناول في الإلهيات موضوعات مهمة منها: إثبات وجود الله ، ووحدانيته وصفاته ، ومخالفته للحوادث ، وعلاقة الله بالإنسان والعالم ، محاولين من خلال تناولنا لهذه الموضوعات توضيح الخطوط الأساسية والفكر الجوهرية والخصائص المميزة لكل فرقة . مشيرين في الوقت نفسه إلى أوجه القصور والنقص . إلا أن هذا - في الوقت نفسه- لا يمنعنا من ذكر بعض آراء الفرق الأخرى مثل: الحشوية والكرامية والجبرية ، مبينين تهافت رأيهم في تلك المسألة .

ورغم أن النقد الشديد الموجه للمتكلمين عامة ، إلا أننا نرى أن هناك من يكن اعتزازاً خاصاً للمعتزلة ؛ حيث يبدو في كثير من النقاط مدافعاً عنهم بالأدلة العقلية حيناً وبتأويل الآيات حيناً آخر ، وفي أحيان أخرى ينتقدهم محاولاً أن يقيم من اعوجاج فكرة أو رأي من آرائهم ، وهو في ذلك له دور شبيه بدور ابن رشد من الفكر الأرسطي ، ولم لا وقد تأثر بابن رشد في كل شيء؟ وليس أدل على ميل

(1) د . عبد الحليم محمود ، منهج الإصلاح في المجتمع ، ط الشعب ، بدون تاريخ ، ص 26 ، 27

(2) تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين ، ط مكتبة الزهراء ، 1990 ، ص 29 وانظر له أيضاً منهج السلف بين العقل والتقليد ، ط مطبعة العمرانية للأوفست ، 1994 م ، ص 119 ، 120

هذا الفريق إلى الفكر الاعتزالي من اعترافه بأنهم المؤمنون العقلاء أو بأنهم عقلاء الأمة ، تلك التسمية التي يعارضها غير باحث ؛ حيث يرى بعض الباحثين المرموقين غير ذلك، حيث يقول أحدهم : "اعتبر المعتزلة رواد العقل في الإسلام وهذا خطأ ...إنهم كانوا رجال عقل محض، قابلو النص الديني - وهم فلاسفة- ففحصوا في ضوء هذا العقل النص، فقبلوا منه ما قبلوا، وأنكروا منه ما أنكروا" (3). ويقول الأستاذ الدكتور الجليند : " وبلغت ثقة المعتزلة بالمعرفة العقلية درجة كبيرة جعلتهم يتأولون النصوص الشرعية على غير مقتضاها ، فما قبله العقل من النصوص قالوا به ، وما عارض العقل تأولوه إلى ما يوافق مقتضى العقل ، ولهذا فقد عرفوا بين سائر الفرق الإسلامية بنزعتهم العقلية المتطرفة أحياناً " (4). وأياً ما كان الرأي فإننا نعتقد أن المعتزلة كانت ضرورة من ضروريات العصر الذي نشأت فيه ؛ لكي تدافع عن هذا الدين ضد موجات الإلحاد والزندقة من أصحاب الملل والديانات الأخرى ، مثلها في ذلك مثل جميع الفرق الأخرى التي اقتضت الظروف وجودها.

وإذا كان هذا الفريق يميل إلى المعتزلة ويلقبهم بهذا اللقب ، فإن منهم من لم يكن موافقاً لهم على الدوام، وإنما كان البعض ينتقدهم عندما يرى أن آراءهم لا تتفق مع الدين ، أو مع مقتضيات العقل ، أو أن تكون أدلتهم جدلية ، وخير مثال على ذلك موقفهم من مسألة وجود الله ؛ حيث استدلو على ذلك بما يعرف بدليل الجوهر الفرد ، أو الجزء الذي لا يتجزأ كما سنبين بعد قليل ، إلى غير ذلك من المسائل التي يوجه النقد إليهم فيها .

وعلى جانب آخر كان هذا الفريق شديد النقد على الفكر الأشعري ؛ فكثيراً ما كان يطيل عند الحديث عن مذهبهم ، مبيناً تهافت آرائهم ، ومسفهاً لها إلى حد أنهم وصفوهم في مواضع كثيرة بأنهم من الجبرية حيناً ومن المشبهة حيناً آخر ، ولعله في ذلك يتخذ رأياً مخالفاً لما عليه الجمهور ، من أن الأشعرية – وخاصةً أستاذهم الأول الأشعري – كانت أقرب إلى روح الشرع الإسلامي من أي فرقة كلامية أخرى . يقول أحد الباحثين المرموقين "وعاشت الفلسفة الإسلامية الأصيلية لدى الأشعري . وكانت الأشعرية وحدها نتاج المجتمع الإسلامي" (5) ، وعلى ذلك فإنهم "فلاسفة الإسلام على الحقيقة : أي المعبرون بحق عن قرآن الله وسنة رسوله" (6)

ولقد كان قطاع كبير من هذا الفريق لا يهتم كثيراً بضرورة الفصل بين الأشعري والأشعرية ؛ ذلك أن الأشعري في أغلب آرائه يقترب كثيراً من مذهب أهل السلف ، مقدماً النص على العقل ، ورغم أن الأشعري كثيراً ما لجأ إلى التأويلات والتدقيقات الجدلية ، إلا أنه اعتذر عنها في كتابه "الإبانة في

(3) د . علي سامي النشار ، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ، ط دار المعارف ، مصر ، الثامنة ، 1981 م ، ج 1 ص 313

(4) في علم الأخلاق قضايا ونصوص ، ط مطبعة التقدم بالمنيرة ، 1979 م ، ص 69

(5) د . علي سامي النشار ، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ، ج 1 ص 421

(6) السابق ، ص 427

أصول الديانة "، مما يدل دلالة قاطعة على أنه مخالف للمنتسبين إليه⁽⁷⁾ الذين كانت لهم آراؤهم الخاصة ، التي يختلفون بها قليلاً أو كثيراً عن أستاذهم الأول ، والتي جعلتهم يقتربون إلى- حد ما من- خصومهم السابقين المعتزلة . "وبالجملة فبينه وبين المنتسبين إليه بون بعيد"⁽⁸⁾ إذن فما هي الأسباب التي دعت هذا الفريق إلى الميل إلى الفكر الاعتزالي ونقد الفكر الأشعري ؟ وما هي الأسباب التي جعلت الفريق الآخر يشتد على الفكر الاعتزالي ويميل إلى الفكر الأشعري ؟ وهذا ما نحاول إيضاحه في السطور الآتية .

المعتزلة :

يقول البغدادي في كتاب الفرق بين الفرق أن المعتزلة هم أتباع واصل بن عطا الغزال رأس المعتزلة ، وكان واصل من مرتادي مجلس الحسن البصري في زمان فتنة الأزارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق ، فرقة تزعم أن كل مرتكب لذنوب صغير أو كبير مشرك بالله وكان هذا قول الأزارقة من الخوارج ، وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأمة يقولون إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن لما فيه من معرفته بالرسول والكتب المنزلة من الله تعالى ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق ولكنه فاسق بكبيرته وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والإسلام.

ويحكي البغدادي أيضاً قائلاً : على هذا القول مضى سلف الأمة من الصحابة وأعلام التابعين فلما ظهرت فتنة الأزارقة بالبصرة والأهواز واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب على الوجوه الخمسة التي ذكرناها خرج واصل بن عطا عن قول جميع الفرق المتقدمة ، وقال بأن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلي الكفر والإيمان . فلما سمع الحسن البصري من واصل هذا الذي خالف به أقوال الفرق قبله طرده عن مجلسه فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة وانضم إليه قرينه عمرو بن عبيد ، فقال الناس يومئذ فيهما إنهما قد اعتزلا قول الجمهور ، وسمى أتباعهما من يومئذ "معتزلة".

الأصول الخمسة عند المعتزلة :

ينبني فكر المعتزلة على خمسة أصول هي :

أ – التوحيد ، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى واحد لا شريك له في ذاته وأفعاله وصفاته ، وهو منزله أن الانقسام والتعدد والنقص . وقد ترتب على هذا الأصل رأيهم في الموضوعات الآتية :

(7) وانظر أيضاً الشيخ خالد البغدادي ، رسالة في تحقيق الإرادة الجزئية ، ضمن كتاب حاشية البغدادي علي حاشية السيالكوتي ، ط در سعادت ، 1307 هـ ، ص 115

، انظر الشيخ حافظ بن أحمد الحكي ، معارج القبول ، ط مكتبة مصطفى الباز ، مكة ، 1996 م ، ج 1 ص 306

(8) معارج القبول ، ج 1 ص 306

الصفات السلبية .

الصفات الإيجابية .

الصفات الخيرية .

كلام الله قديم أم مخلوق ؟

رؤية الله تعالى .

ب - العدل ، فإذا كان التوحيد أهم صفة للذات الإلهية فإن العدل أهم صفة للفعل الإلهي ، وعليه سمي المعتزلة أهل التوحيد والعدل . وقد ترتب على هذا الأصل الثاني رأيهم في :

وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى .

وجوب إرسال الرسل .

وجوب حرية الإنسان واختياره .

ج - الوعد والوعيد ، وهو الأصل القائم عندهم على أساس أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب والعصاة بالعقاب ، والواجب على الله عندهم ألا يخلف وعده ولا وعيده ؛ لأن إخلاف الوعد أو الوعيد قبيح ، والله سبحانه لا يفعل القبيح ، وينطلق المعتزلة هنا من فكرتهم عن العدل الإلهي ، فتحقق الوعد والوعيد يؤكد على صفة العدل الإلهي ، ومن ثم فلا يجوز عندهم أن يتساوى العصاة بالمطيعين ، كما أن الوعد عامل تحفيز للمؤمنين على الطاعة والثقة في نعيم الله ، والوعيد عامل ترهيب للعصاة ورادعاً لهم عن الاستمرار في الغي .

د - المنزلة بين المنزلتين ، وهذا الأصل خاص بالمعتزلة ، وهو مرتبط بموضوع مرتكب الكبيرة ، فالخوارج قالوا بكفر مرتكب الكبيرة ، والمرجئة قالوا مؤمن عاصي وأرجأوا أمره إلى الله ، وذهبت المعتزلة إلى أنه في منزلة بين المنزلتين أي بين الكفر والإيمان ، فليس عندهم بمؤمن كامل الإيمان ولا كافر على إطلاقه ، وإنما في منزلة بين المنزلتين .

هـ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويشترط في من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عندهم أن يكون عالماً بالمعروف والمنكر ، ألا يؤدي أمره بالمعروف إلى مضرة أكبر ، أن يختار أيسر السبل في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر .

خصائص الفكر الاعتزالي :

1- يعتبر الاتجاه العقلي لدى المعتزلة من أهم الأسباب التي دفعت هذا البعض إلى الميل للفكر الاعتزالي ، فقد تأثروا به تأثراً كبيراً ، وأعجبوا به إعجاباً شديداً؛ لأنه يتوافق مع منهجهم العقلي وثقافته النقدية . ومن هنا نجدهم في كثير من المواضع يصفونهم بالمؤمنين ، أو عقلاء الأمة ، ولعل من الملاحظ أن تسميتهم هذه للفكر تجمع بين الشرع والعقل، وتلك نقطة لا خلاف عليها ، إلا أن المعتزلة قدموا العقل على النص ، وهذا بدوره أوقع في إشكاليات عديدة ؛ حيث كان ما يرمي إليه المعتزلي -

على حد تعبير أحد الباحثين - "هو تدعيم الأصل العقلي الذي وصل إليه ، وفي خلال العقل كان فهمه للكتاب" (9)

2-تأثر المعتزلة بمذاهب الفلاسفة في حججهم العقلية وأساليبهم المنطقية .ولعل في استخدام المعتزلة المطلق للعقل ما يؤكد هذه الفكرة ، ويقرب منهم كثيراً - فلسفياً ومنطقياً- ونحن نعلم مدى اعتزاز هذا الفريق بالفلاسفة المسلمين ؛ لأنه - أي هذا الفريق - يرى في فلسفتهم محاولة جليلة للتوفيق بين العقل والشرع ، فقد وجد في طرق المعتزلة ومنهجهم ما يعتبر سيراً على ضرب الفلاسفة ، إن لم يكن يرى فيهم أنهم فلاسفة على الأصح ، خاصةً وقد " راج مذهب الاعتزال لما فيه من مظاهر البحث العقلي والاعتماد على أساليب المنطق ، فمالت إليه الطباع ، وكثر أنصاره " (10) ، ويظهر ذلك بوضوح في كتب زعماء المعتزلة كأبي هذيل العلاف والنظام وغيرهما (11).

ومن الصحيح الاعتراف بأن تأثر المسلمين بالفلسفة لم يكن وقفًا على المعتزلة فحسب ، فخصوم المعتزلة " أخذوا من كتب الفلاسفة آراءهم ومعظم الأدلة التي كانوا يؤيدون بها مذاهبهم ، أو يحاربون بها مذاهب خصومهم ... " (12) إلا أن المعتزلة - حسب ظني - كانوا أكثرهم باعًا في الأخذ بالفلسفة والأساليب المنطقية ؛ مما أضفى على مذهبهم نوعًا من العقلانية الطاغية .

3- تناسق الفكر الاعتزالي وتوافق عناصره ، فلعل من أسباب ميله إلى الفكر الاعتزالي ما رآه هذا الفريق في ذلك الفكر من تناسق بين أفكاره ، وتتابع منطقته بين عناصره وموضوعاته ، وقد اعترف بذلك عند حديثه عن موضوعات الرؤية والجهة والجسمية . ويضرب أحدهم لنا مثالاً على ذلك برأي المعتزلة في تلك الموضوعات ، حيث نفى المعتزلة الرؤية البصرية ؛ لأن القول بإثباتها يقتضي الجسمية ، وكذلك نفوا الجسمية ؛ لأن القول بإثباتها يقتضي الجهة ، ففضوا بنفي هذه الأمور جميعها . وهم في ذلك على خلاف مع الأشاعرة الذين أجازوا الرؤية والجهة ونفوا الجسمية ، فرأى أنهم يناقضون أنفسهم ، أما المعتزلة فوجدتهم متوافقين مع مذهبهم غير مناقضين لأنفسهم.

4- من أهم الأسباب التي دعت بعض المفكرين إلى تفضيل الاعتزال- إن لم يكن أهمها على الإطلاق- اعترافهم بأن الاعتزال المعتدل هو المذهب الأصح للمجتمع الإسلامي كله ؛ لينهض من عثرته ، ويصلح من نفسه ، فقد كان محمود قاسم مثلاً يعتبره وسيلة من وسائل النهضة والإصلاح للأمة

(9) نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام ، ج 1 ص 421 ، وانظر ص 313

(10) الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الثالثة ، بدون تاريخ ، ص 88

(11) انظر عبد العزيز عز الدين السيروان ، مقدمة تحقيق كتاب العقيدة للإمام أحمد بن حنبل ، برواية أبي بكر الخلال ، ط دار قتيبة ، دمشق ، الأولى ، 1988 م ، ص 22

(12) دي بور ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ط دار النهضة العربية ، بيروت ، الخامسة ، 1981 م ، ص 316 ، 317

الإسلامية . يقول الدكتور قاسم : " إن نهضة البلاد الإسلامية تتسم بعودة فكر الاعتزال المعتدل ، وتمجيد العلم والعناية بالفلسفة ، على عكس ما أراد لها أهل الظاهر الذين كانوا يظنون أن دينهم يخشى تقدم العلم ، مع أنه لا يتضح في أذهان معتنقيه إلا إذا سار مع العلم جنباً إلى جنب ؛ لأن الجمود والتقليد من أقتل أعدائه"⁽¹³⁾

5- ولا ننكر أن من أسباب ميل هذا الفريق أيضاً إحساسه بالظلم الذي وقع على المعتزلة⁽¹⁴⁾ عبر العصور المختلفة اعتماداً على أن أغلب فكر المعتزلة يؤخذ من كتب خصومهم ، ومما لا شك فيه أن الخصم مهتم بإيراد هنات وسوءات خصمه مسفهاً له وناقداً ، ولا يذكر جوانب القوة والنضوج فيه ، واعتماداً على أن كتب المعتزلة التي وصلت إلينا قليلة ، بل أقل القليل ، هذا كله أتاح للخصوم نقد المعتزلة نقداً شديداً ، جعل بعضاً من خصومهم يهتمهم بالخروج عن الدين ، فأوجد ذلك في نفس البعض تعاطفاً كبيراً نحو هذا المذهب .

6- ولذا يذهب البعض إلى أن المعتزلة أقرب الفرق الإسلامية إلى روح الشرع ، وأنها المعبرة عنه بحق في عقائده لالتزامها بمنهج يجمع بينه وبين العقل ، وإن أعطت العقل الأولوية ، فكان من نتائج ذلك تنزيه الله في ذاته وصفاته ، ومخالفته سبحانه الحوادث ، ووحدانيته ، إلى غير ذلك من الموضوعات التي رأى غير باحث أنها تقترب بالمعتزلة من روح الإسلام .

7- لعل في اختلاط هذا الفريق بالعقول الغربية سبباً من الأسباب التي دعت لاختيار الاعتزال ، فقد سافر غالبية إلى الدول الغربية كفرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها من الدول ، وتعايشوا مع أساتذة ومفكرين غربيين ، كانت لهم مناهجهم العقلية والفكرية ، مما أثر - حتماً - أبلغ الأثر في توجهاتهم ، هذا فضلاً عن طابع الحياة العملية العلمية التي تميل إلى المنهج العقلي في أغلب حياتهم . ومن المعروف أن البيئة تؤثر تأثيراً كبيراً في عقول وحياة الأفراد ، ويستمر هذا التأثير معه طوال حياته ، كما يرى علماء الاجتماع .

8 - لعل من ضمن الأسباب أنه رأى في هذا المذهب ما يناسب ظروف العصر الحديث من اهتمام بالعلم ، وضرورة الاعتماد على العقل ، فلربما رأى أصحاب هذا الفريق في المعتزلة نموذجاً يُحتذى للأخذ بأسباب العلم وطرقه .

نقد الفكر الاعتزالي :

رغم أن المعتزلة نهضت في الأساس للدفاع عن الدين في شتى بقاع الأرض ، ورغم اعترافهم بقيمة العقل ، فإنهم وقعوا في عدة أخطاء منها :

(13) د . محمود قاسم ، مقدمة في نقد مدارس علم الكلام ، ص 6

(14) د . حسن الشافعي ، محمود قاسم والآراء الكلامية في مصر ، بحث منشور في الكتاب التذكاري محمود قاسم الإنسان والفيلسوف

ط الأنجلو المصرية ، ص 249

- 1 - المغالاة في الاعتراف بقيمة العقل واستخدامه ، حتى جعلوا منه حكماً على النصوص الشرعية بإطلاقهم العنان له بصورة أكثر مما ينبغي.
 - 2 - قضية الواجب على الله تعالى .
 - 3 - إنكار بعض فرقهم للشفاعة .
 - 4 - وقوع بعضهم في الصحابة .
 - 5 - فصلهم بين النظرية والتطبيق فيما ترتب على مسألة خلق القرآن ، حيث استغلوا مبدأهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التنكيل بخصومهم والزج بهم في السجون باستعمال السلطة السياسية وتأليبها عليهم.
- الأشاعرة :**

تنسب الأشاعرة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وقد ولد في البصرة عام 260 هـ، وكان من ضمن رواد مدرسة الاعتزال ، حيث تتلمذ على يد أبي علي الجبائي أحد كبار المعتزلة ، حتى صار الأشعري من ضمن أعلام هذا الفكر في تلك الفترة ، إلى أن حدث ما يمكن أن نسميه أمراً مفصلياً في حياته الفكرية جعله ينفذ الفكر الاعتزالي عن كاهله ، ويتبنى إنشاء مدرسة جديدة هي المدرسة الأشعرية ، وهو مناظرة للجبائي أستاذه في مسألة الصلاح والأصلح . وهي المناظرة التي بينت تهافت المسألة عند المعتزلة وعدم ثباتها أمام النقد الحصيف، كما درس الأشعري الفقه الشافعي وتتلذذ فيه على أحد أئمة هذا الفقه وهو إسحاق المروزي في بغداد .

خصائص الفكر الأشعري :

- 1 - الجمع بين العقل والنقل في تحليل القضايا الكلامية وإبداء موقفه منها : كقضايا التوحيد والرؤية وحرية الإرادة ومخالفة الله تعالى للحوادث وغيرها ، وجعل النقل في مكان الصدارة منها
- 2 - وسطية المنهج الأشعري في العديد من القضايا الكلامية .
- 3 - تعد قضية الكسب عند الأشعري خصيصة من خصائص الفكر الأشعري بغض النظر عن اتفاقنا معه فيها من عدمه .
- 4 - إثراء الحركة الكلامية في بلاد الإسلام من خلال مناظراته مع المعتزلة ، مما أثرى قضايا وموضوعات علم الكلام .

أسباب نقد الفكر الأشعري :

- 1- تأثر بعض المفكرين بنقد ابن رشد للفكر الأشعري ، فمن المعروف أن ابن رشد وجه نقداً شديداً للأشاعرة المتكلمين ، وهو في ذلك قد اتخذهم نموذجاً لنقد المتكلمين عامةً ، ولعل ما يؤكد ذلك أنه قصد بنقد الأشاعرة المتكلمين كلهم أنه عند حديثه عن المعتزلة أشار إلى أنه لم يصل إليه من كتبهم شيء ، ثم رجح أن طرقهم من نفس طرق الأشاعرة الجدلية، "وقد جاء ابن تيمية، وسجل عليه

هذا المآخذ ، واتهمه بالتقصير في الاطلاع على تراث المعتزلة ، الذي كان أصلاً وأساساً للجدل عند الأشاعرة" (15)

2- اتباع الأشاعرة الطرق الجدلية والتعريفات العقلية . نعم، ندرك أن الجدل صفة أساسية في كل المذاهب الكلامية ، بما فيها المعتزلة ؛ إذ مما لاشك فيه أن الجدل والتفريع العقلي سمة لا تنفك عن المتكلمين عامةً، وإن كان يوجد عند الأشاعرة ، فإنه يوجد بالقدر نفسه عند المعتزلة .

3- سوء استخدام المنطق وتطبيق الأساليب المنطقية بطريقة خاطئة ، ولعل أهم ما يؤكد هذه الفكرة نقد العديد من المفكرين للأشاعرة في أكثر من نقطة ، متعللين بخطأ في تطبيق الأساليب المنطقية ، من ذلك نقده لهم في الاستدلال على وحدانية الله ؛ حيث طبقوا فيها أسلوباً منطقياً بطريقة خاطئة ، من ذلك مثلاً أنهم ظنوا أن آية "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" (16) من قبيل القياس الشرطي المنفصل .

4- لعل في اهتمام الأشاعرة بالنص وتمسكهم به على حساب العقل ما دعا بعض الباحثين إلى نقدهم ، فقد رأى فيهم أهل ظاهر وعبد نص ، وأياً ما كان صدق هذا الأمر أو خطؤه فإن الأشعرية كانوا يعتمدون على النص أولاً، ثم يأتي العقل في المرتبة الثانية ، ومن هنا فقد أرجعوا كثيراً من المسائل إلى دلالة الشرع ، لا إلى دلالة العقل . من ذلك مسألة الحسن والقبح ، فإنهم رأوا أن الشرع هو الذي يحسن ويقبح ، لا كما ذكر المعتزلة من أن العقل هو المنوط به ذلك . وقد فطن كثيرون إلى تمسك الأشعري بالعقل وهذا ما يؤكد أحد الباحثين قائلاً : " الأشعري الذي وقف فيه من العقل موقف الاعتدال والتوسط ، فلم يفرط في الاعتداد به إفراط المعتزلة ، أو يفرط في اللجوء إليه تفريط المجسمة " (17) . ويقول الأستاذ الدكتور حامد طاهر : كان " الأشاعرة المنافسون الكبار للمعتزلة ذوي نزعة عقلية أيضاً ، وعندما بدأت بالتدرج الدراسات حول أبي الحسن الأشعري (324=935) ، والباقلاني (403=1013) ، والغزالي (505=1111) تبين بوضوح مدى ما يحتوي عليه اتجاه هؤلاء المفكرين الكبار من عناصر فكرية على درجة عالية من العمق والخصوبة ، فضلاً عن أنه هو الاتجاه السائد ، الذي ساد العالم الإسلامي تحت اسم مذهب أهل السنة والجماعة." (18)

5- ظهر أن الفكر الأشعري يعوزه التناسق والتجانس الذي عليه الفكر الاعتزالي في بعض القضايا ، ولعل هذا الموقف يُبنى على ما وجد عند الأشاعرة الذين ينفون الجسمية في حين يؤيدون الجهة

(15) د . الطيبلاوي محمد سعد ، موقف ابن تيمية من فلسفة ابن رشد ، مطبعة الأمانة ، القاهرة ، الأولى ، 1989 م ، ص 31 ، 32

(16) سورة الأنبياء ، آية 22

(17) د . عبد الفتاح الفاوي ، أصالة التفكير الإسلامي في علم الكلام ، القاهرة ، 1983 م ، ص 70 ، وانظر حنا الفاخوري و خليل الجر .

تاريخ الفلسفة العربية ، بيروت ، دار الجيل ، الثالثة ، 1993 م ، ج 1 ص 179

(18) د . حامد طاهر ، مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ، ط دار الهجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1985 م ، ص 23

والرؤية، مما يستلزم في نظر البعض عدم توافق مذهبهم ،وتناقضهم مع أنفسهم ؛ اعتماداً على أن القول بالجهة والرؤية يوجب الجسمية.

6- لأن التأويل عند الأشاعرة لا يسير على نهج محدد ، فتارة يؤولون الآيات وتارة يتمسكون بالظاهر.

7- نقد الأشاعرة الشديد للمعتزلة يعتبر من الأسباب التي دعت لمهاجمة الأشاعرة . على الرغم من أن الأشاعرة في نقدهم للمعتزلة كانوا كثيراً ما يقعون في أخطاء تبعد بهم عن روح الشرع ، وليست مسألة أفعال العباد عندهم بأسعد خطأ منها عند المعتزلة . بل لقد رأى أشد مؤيدي فكر الأشعري أن آراءه لا تخلو من بعض المآخذ خاصة في مسألة التحسين والتقبيح⁽¹⁹⁾ .

تلك كانت أهم الأسباب التي تبدو من وجهة النظر المتواضعة أنها دعت البعض إلى تفضيل المعتزلة وإلى نقد خصومهم . وربما أكون قد أطلت في تلك المقدمة ، إلا أنها ضرورية لتمهيد الطريق ، والكشف عما فيه من خصائص وأفكار ؛ حتى نصل إلى المنهج الذي صار عليه علم الكلام المعاصر في نقد المتكلمين ، ومن ثم يمكن القول إنه نتناول علم الكلام من خلال أربع قضايا جوهرية هي : وجود الله ، الوجدانية والصفات ، مخالفة الله للحوادث ، الله وعلاقته بالعالم والإنسان .

¹⁹ انظر أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي ، تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ط القدس بدمشق ، 1347 هـ ، ص 19